ويتساوى المقدَّس والمدنَّس والمطلق والنسبي، ويختفي المركز أو تتعدَّد المراكز، وبالضرورة تصبح كل الأمور متساوية، وبالتالي نسبية، وتسقط في قبضة الصيرورة، ويصبح العالم لا مركز له . . وهكذا ندخل مرحلة السيولة .

ويمكن استخدام مقولة «تجسُّد الإله وموته» كمقولة تحليلية. فالإله يتجسَّد في عالم الطبيعة/ المادة، ويصبح متوحداً معه، حتى يصبح الإله هو الطبيعة/ المادة، فيموت ـ حسب رغبة نيتشه. وبموت الإله تصبح الطبيعة/ المادة مقدسة، بل تتأله، وبالتالي تكون مركز الكون . . وهذه هي مرحلة الصلابة. وحينما تصبح كل الأشياء مقدسة تصبح أيضاً مدنسة، فخلع القداسة على كل الأشياء يساوي تماماً نزعتها عنها، إذ تصبح كل الأمور متساوية . . الخير مثل الشر، والعدل مثل الظلم، والحياة مثل الموت. ومع تعدُّد المراكز يصبح العالم لا مركز له، فندخل مرحلة السيولة .

والانتقال من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة هو انتقال من التحديث إلى الحداثة، ومنهما إلى ما بعد الحداثة. فمرحلة التحديث هي المرحلة التي يؤمن فيها الإنسان بأن للعالم مركزاً، وأنه خاضع لقوانين مطردة، وبالتالي يمكن للإنسان أن يدرسه ويعرف قوانينه ومعاييره، ويسيطر عليه من ثمَّ ويعيد صياغته حسب قوانينه. ولذا فإن الدوالَّ في هذه المرحلة مرتبطة بالمدلولات، وقول الإنسان له معنى، والتواصل بين بني البشر ممكن. ولكن حينما يبدأ تفكيك الإنسان ؛ تسيطر عليه الحتميات الطبيعية المادية المختلفة، ونكتشف أن عالمه قد انفصل عنه، وأنه لم يعد مركز الكون، وأنه يستمد معياريته من الطبيعة، ويبدأ في الشعور بأن الدوالَّ لم يعد لها مدلول، وأن محاولة التواصل إنما هي عبث لا طائل من ورائه، فيبدأ في كتابة مرثية عالمه المادي البطولي الذي ولَّى. فالحداثة هي الإدراك المأساوي لفشل المشروع التحديثي وإمكانية معرفة الإنسان قوانين الطبيعة والسيطرة عليها. وحينما يترسخ هذا الإدراك، وحينما تتعدد المراكز، وحينما تسود النسبية، ويصبح العالم بلا معيارية، والدوالُّ منفصلةً عن المدلول، والكلماتُ لا معنى لها ـ يذعن الإنسان تماماً